@Tafsircenter

إستل ويلان
Estelle Whelan

الشاهد المغفول عنه

دليل على التدوين المبكر للقرآن

محمد عبد الفتاح

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

نبذة تعريفية بـ «إستل ويلان»:

إستل ويلان، باحثة أمريكية بجامعة كولومبيا، شاركت في عدد من الأعمال البحثية حول تاريخ الإسلام. من أهم مشاركاتها: اشتراكها في تحرير تاريخ الطبري، الذي صدر عن مركز الدراسات الإيرانية بجامعة كولومبيا. توفيت ويلان عام ١٩٩٧م.

مقدمة[1]:

استند الاتجاه التنقيحي في نظرته -تحديدًا- لقضية تدوين القرآن، على عدد من النقوش التي عُثِر عليها في بعض المساجد الأموية، والتي يحضر فيها آيات قرآنية بترتيب مخالف للترتيب العثماني، وكذا مضافًا إليها بعض الجمل غير القرآنية؛ وهذا لتكريس فكرتهم حول عدم موثوقية الرواية الإسلامية عن تاريخ القرآن وتدوينه، وإيجاد مستند نقوشي لطروحهم حول التثبيت الأموي للقرآن في القرن الثاني الهجري.

في هذه الدراسة تقوم إيستل ويلان بطرح مغاير تمامًا لنفس الأدلة النقوشية، تقوم على تسييق هذه النقوش في سياق أوسع يمكن التنبّه إليه من خلال تحليل مجموع هذه النقوش، وتحليل الكثير من الأخبار المتفرّقة حول (جماعة المصاحف) التي كانت تنسخ المصاحف في المدينة قبل معاوية، فَعَبْر هذا التحليل المعمّق تصل ويلان لكون هذه النقوش لا تدلّ -كما يدّعي بعض التنقيحيين- على عدم موثوقية التأريخ الإسلامي عن القرآن؛ كونه ليس أكثر من «تزييف ورع»، بل على العكس، إنها تدلّ على موثوقية الرواية التاريخية عن تدوين القرآن.

فالنمط التي استطاعت ويلان تجريده من خلال تحليلها للنقوش والذي ينبئ عن استخدام دعائي سياسي واجتماعي للقرآن، يشير بقوة لرسوخ النصّ الرسمي وثباته، بل ولكونه معروفًا للمخاطبين به بصورة جيدة، فعلى هذا الأساس يقوم

(١) قام بكتابة المقدمة، وكذا التعريف بالأعلام وكتابة الحواشي والتعليقات الواردة في نصّ الترجمة، مسؤولو قسم الترجمات في موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، وقد ميّزنا حواشينا عن حواشي ويلان بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات).

إمكان استخدامه دعائيًّا، كذلك فالطريقة التي نقشت بها النقوش خطًّا ورسمًا تدلّ على وجود تقليد سابق في الرسم والخط والنقش سابق على هذه النقوش ذاتها، تقليد طويل يمتد للقرن السابع بما يسمح بوصوله إلى هذا النضج في عصر عبد الملك بن مروان.

وفي ظننا فإنّ الأهمية الكبيرة لهذه الدراسة لا تكمن فحسب في نتائجها، بل في قدرتها المنهجية على تحليل النقوش والأخبار، وفتح الباب لدراسة تطوّر فنّ الخط والرسم، والعودة به إلى فترة مبكّرة جدًّا في تاريخ الإسلام.

وتعدّ هذه الورقة ورقة كلاسيكية حاضرة في كلّ نقاش بحثي غربي حول مسألة تدوين القرآن ومسألة النقوش المبكّرة وعلاقتها باقتراح تأريخ لهذا التدوين، سواء برفض نتائجها أو قبولها أو تطويرها؛ لذا نظنّ أن ترجمة هذه الورقة وإتاحتها بالعربية للباحثين العرب في دراسات القرآن، قادرة على تطوير النظر في هذه القضية وفي مواقف الباحثين الغربيين المتنوعة تجاه هذه القضية شديدة المركزية في البناء المنهجي للدرس الغربي للقرآن، أي: (تاريخ القرآن).

المقال[1]:

يتناول البحث ثلاثة شواهد تاريخية لم تلقَ دراسة جادة من قبل في إطار قضية التدوين: فثمّة نقوش على قبة الصخرة تعود للحقبة الأموية جرى إغفالها أو نُحّيت جانبًا؛ نظرًا لوجود اختلافات واضحة عن النصّ القرآني المدوّن، كما تشهد بذلك طبعة القاهرة، وهنا يتم تحليل هذه النقوش للوقوف على أيّ دليل يوصلنا لحالة النصّ القرآني قرب نهاية القرن الأول الهجري، وهناك نقوش أخرى على نفس القدر من الأهمية، أَلَا وهي نقوش الوليد الموجودة على المسجد النبوي ويعود تاريخها لعشرين سنة تالية لهذا الشاهد. وقد وصفها لنا شهودٌ عيان في النصف الأول من القرن العاشر، وكانت لا تزال ظاهرة بشكلٍ جزئي. وأخيرًا، يمكن في ضوء هذه الشواهد المتفرّقة القول بوجود مجموعة منٍ نُسّاخ القرآن المهرة في المدينة بنهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني.

ثارت موجة من الجدل على مَرّ العقدين الأخيرين حول الفترة الزمنية التي دُوّن فيها كتاب المسلمين المقدّس، ويمكن تلخيص الرؤية الإسلامية السائدة على النحو التالي[2]: سعى أبو بكر (تولى الخلافة من سنة ١١-١٣هـ/ ٦٣٢-٦٣٤م)، وعمر (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م) إلى جمع قصاصات الوحي القرآني التي دوّنها المؤمنون في عهد النبي على العَظْمِ واللّخاف والعسب والأكتاف وكلّ شيء كان في متناول أيديهم، علاوة على المحفوظ في صدور الرجال[3]. لكن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (تولى الخلافة من سنة ٢٣ حتى ٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٦١م) كان أول من

(١) أود أن أعبّر عن امتناني للدكتور مايكل باتس والدكتور ريتشارد فيرديري والبروفيسور جيمس بيلامي، وفريد دونر، وجوزيف إس لما أبدوه من تعليقات نافعة على المسوّدة الأولى من هذا البحث.

(٢) تتجلى الدراسة الغربية التقليدية لتاريخ النصّ القرآني وفق ما هو محفوظ في التراث الإسلامي فيما كتبه ثيودور نولدكه في كتابه «تاريخ القرآن»، تحقيق: فريدريش شوالي، الطبعة الثانية، الجزء الثاني (لايبزيغ، ١٩١٩). للاطلاع على ملخصات مفيدة مزودة بالمراجع، انظر: W. M. Watt, Bell's Introduction to the Qur'an (Edinburgh, 1970); A. T. Welch and J. D. Pearson, «al-Kur'an,» El2, 5: 400-432.

(٣) نولدكه، ص١٣.

كلّف مجموعة صغيرة في المدينة بمهمّة جمع القرآن وتدوينه؛ وقد راعه اختلاف الناس في القراءة فأمر زيد بن ثابت الذي كان أحد كتبة الوحي في عهد النبي ومعه رهط من كبار القرشيين، هم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث، أن يجمعوا القرآن، مستندين في ذلك إلى الصحف التي سبق جمعها وكانت بحوزة حفصة بنت عمر، وإذا وقع خلاف بينهم في شيء من القرآن كتبوه بلسان قريش. وبعد أن تمّ لهم جمعُ القرآن، وُزِّع على الأمصار، وخاصّة الشام والبصرة والكوفة، وربما غيرها.

ورغم تفاوت الروايات في بعض التفاصيل، من ذلك -مثلًا- أسماء الرّهط الذين كلّفهم عثمان بهذه المهمّة، والأمصار التي وُزِّعت عليها نسخ المصحف، إلا أن هذا المضمون الأساسي لا خلاف عليه في العالم الإسلامي.

ومع ذلك بقيت التلاوة الشفهية الوسيلة المثلى التي انتقل بها القرآن، وبمرور الوقت ظهرت نسخ متنوعة للنصّ، من نوع التصحيف الطبيعي الملازم للمشافهة. وعلاوة على ذلك، فنظرًا لطبيعة الخطّ العربي في العصور الأولى إِذْ لم يكن هناك نقط وإعجام وكان التمييز بين الحركات والأحرف يحتاج إلى مزيد بيان بالنقط، فقد ترتب على ذلك الوقوع في اللبس وأخطاء النسخ، والتصحيف عند الكتابة. وفي بداية القرن العاشر في بغداد نجح أبو بكر بن مجاهد (ت: ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) في قصر القراءات المعتمدة للقرآن على سبع قراءات كانت سائدة في العواصم الإسلامية آنذاك، ممثّلة في المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة، وكلّ مَنْ أَصَرَّ على الخروج عن هذه القراءات السبع عوقب بشدّة[1]. ومع ذلك، بمرور الوقت، ظهرت قراءات

(١) من أشهر الأسماء التي عرفت بالخروج عن القراءات السبعة، أبو الحسن بن شنبوذ (ت: ٣٢٨ هجرية)، وابن مقسم العطار (ت: ٣٥٤ هجرية)، وقد رُفع أمر ابن شنبوذ للوزير ابن مقلة وزير الراضي، وضُرب سبع درر، وقيل: إنه جُرِّد من ثيابه وأُقيم بين الهبّارين وضُرب عشر درر فأذعن بالرجوع عن تلاوته، وقيل: إنه نُفِي فغادر بغداد إلى البصرة. «غاية النهاية في طبقات القراء»، ابن الجزري، الجزء الثاني، ص٥١. وابن مقسم العطار وقد رُفِعَ أمره إلى السلطان، واستتيب فأذعن وتاب، وقيل استمر في القراءة بها إلى وفاته. «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»، الذهبي، ص٥٩٩، (قسم الترجمات).

أخرى، فزيدت قراءات ثلاث بعد السبع المعروفة، ثم قراءات أربع بعد العشر. وتستند النسخة القاهرية الحديثة التي اعتمدها الأزهر في عشرينيات القرن العشرين على إحدى القراءات السبع التي أجازها ابن مجاهد، وهي قراءة أبي بكر عاصم (ت: ١٢٧هـ/ ٧٤٥م) برواية حفص بن سليمان (ت: ١٨٠هـ/ ٧٩٦م).

وقد سار على نهج المسلمين الأوائل في جهودهم لإثبات تتابع الوحي وبخاصة المكي والمدني، علماءُ أوروبا الذين صرفوا تركيزهم إلى إشكالات مشابهة وإن اختلفوا في المعايير التي اتبعوها للوصول إلى حلّ لهذه الإشكالات[١]. ومع ذلك فإن ألفونس منجانا[٢] قد شكّك في هذا السياق التاريخي كلّه[٣]، ورأى منجانا الذي اتسم منهجه بالانحياز الواضح[٤] أن القرآن لم يُجمع في سِفر واحد في هذا التاريخ المزعوم وإنما بعد ذلك بعدّة عقود، في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦/ ٦٨٥-٧٠٥). بل إنّ جون وانسبرو[٥] ذهب إلى

(١) انظر: ويلش وبيرسون، ص٤١٦-٤١٩، وبخاصة ص٤١١ حين يشيران إلى طبعة غوستاف فلوجل للنصّ القرآني.

(٢) ألفونس منجانا (١٨٧٨-١٩٣٧) مستشرق وكاهن كلداني، كان والده قسيسًا كلدانيًّا بالكنيسة المتحدة في روما، درس في المعهد السرياني الكلداني للدعوة بالموصل، فتعلم السيريانية والعربية والتركية والفارسية، وبعد خلاف لاهوتي مع الكنيسة الكاثوليكية -بسبب بعض آرائه- ترَك الموصل وسافر إلى المملكة المتحدة، وهناك عمل كأستاذ للغات واللاهوت في كلية وودبروك، ثم عمل في مكتبة جون رايلند ذات الشهرة في المخطوطات العربية، وقد نشر بصحبة مرجليوث المستشرق الإنجليزي (١٨٥٨-١٩٥٠) كتاب «الدين والدولة» لعلي بن ربن الطبري (٨٣٨-٨٧٠)، (قسم الترجمات).

(٣) انظر: A. Mingana, «The Transmission of the Kur'an,» Journal of the Manchester Egyptian & Oriental Society (1915-16): 25-47.

(٤) يتجلى انحيازه في عبارات من قَبِيل قوله: «عند النظر في مسألة نقل القرآن وفق منظور الكاتب المسيحي، فإن القارئ يستشعر أنه يُعاين الحقائق التاريخية فعلًا، بخلاف ما عليه الحال عند النظر فيما تقوله الأحاديث التي لا تنهض على أساس متين»، (انظر: منغنا، ص٣٤).

(٥) جون وانسبرو (١٩٢٨م-٢٠٠٢م) مستشرق أمريكي، يعتبر هو رائد أفكار التوجه التنقيحي، وتعتبر كتاباته منعطفًا رئيسًا في تاريخ الاستشراق؛ حيث بدأت في تشكيك جذري في المدونات العربية الإسلامية =

أكثر من هذا في السبعينيات حين رأى استنادًا إلى التحليل النصّي واللغوي، أنه لا دليل على جمع القرآن في المصحف قبل نهاية القرن الثامن على أحسن تقدير[١].

احتجَّ وانسبرو بأن طبيعة النصّ ذاتها تفترض «تطورًا جوهريًّا نابعًا من التقاليد المستقلّة أصلًا خلال فترة طويلة من النقل... مجموعة من النصوص المستقلة الموحدة بعض الشيء بعدد محدود من القواعد البلاغية»[٢]. وقال دعمًا لهذه النتيجة: إنّ الموروثات الإسلامية عن الوحي، بل عن حياة النبي وتاريخ الإسلام المبكّر أجمع، معروفة فقط من الأدبيات الإسلامية المتأخّرة، فتفاسير القرآن -مثلًا- ظهرت في أواخر القرنين الثامن والتاسع[٣]، كما لا يمكن التأكيد على

= وفي قدرتها على رسم صورة أمينة لتاريخ الإسلام وتاريخ القرآن، ودعا لاستخدام مصادر بديلة عن المصادر العربية من أجل إعادة كتابة تاريخ الإسلام بصورة موثوقة، ومن أهم كتاباته: «الدراسات القرآنية، مصادر ومناهج تفسير النصوص المقدسة» (١٩٧٧م)، (قسم الترجمات).

(١) انظر: J. Wansbrough, Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation (Oxford, 1977)؛ انظر أيضًا: . Chabbi, «Histoire et tradition sacree: La biographie impossible de Mahomet,» Arabica 43.1 (1996): 190-94. وفي مقالة حديثة كتبها نيفو بعنوان «Towards a Prehistory of Islam» نُشرت في مجلة Jerusalem Studies in Arabic and Islam، العدد ١٧ لسنة ١٩٩٤، ص١٠٨-١٤١) حاول التأكيد على المدى الزمني الذي حدده وانسبرو من خلال تتبع التطوّر التدريجي للنقوش الموجودة في النَّجَف وتعود لحقبة الجاهلية ثم الحقبة المحمدية ثم النصوص الدينية الإسلامية. وبغضّ النظر عن عدم وضوح المصطلحات التي ساقها إلا أن البروفيسور دونر لاحظ (فيما أبداه لي شفاهة) أن رأي نيفو يمكن الاستدلال به على الرؤية التقليدية التي ترى أن عصر صدر الإسلام والنصّ القرآني قد تطوّر بشكلٍ أساسي في المدينة وغيرها من المراكز الحضرية، ومنها ما يقع على أطراف النجف. والكاتبة ممتنَّة للبروفيسور دونر لتوجيه نظرها إلى هذه المقالة.

(٢) Wansbrough, 47; cf. pp. 12, 18-20, 44-45, 49.

(٣) للجهود المبذولة حديثًا للتعرف على جذاذات من النصوص الأصلية التي حفظها الكتاب المتأخرون، انظر:

S. Leder, «The Literary use of the Khabar: A Basic Form of Historical Writing,» in The Byzan- tine and Early Islamic Near East, I: Problems in the Literary Source Material, ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Princeton, 1992), 227-315; and W. al-Qadi, «Early Islamic State Letters: The Question of Authenticity,» in ibid., 215-75.

معظم الموروثات الإسلامية المبكّرة في المصادر غير الإسلامية المعاصرة لها. اعتمد تحليل وانسبرو كلّه على افتراض أن «تدوين» النصّ القرآني ودوره في تطوّر المجتمع الإسلامي اتبع طريقًا مماثلًا لطريق الكتاب العبراني، ففيما يتصل بالروايات «التفسيرية» (على وصف وانسبرو لمحتوى سيرة ابن إسحاق، سنة ٨٥-١٥٠/ ٧٠٤-٦٧ تقريبًا، والتي حررها ابن هشام، توفي ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) للمادة التي تظهر -أيضًا- في (المدونة)، يقول: «بالنسبة للكتاب العبراني، فقد ثبتت الأسبقية الزمنية لهذه الروايات على إعادة الإنتاج الفعلي للأقوال النبوية في صورة أدبية. والقول بعمليّة مشابهة إن لم تكن مطابقة في كتاب المسلمين لا يبدو لي غريبًا، مع أنّ العمليّة في هذه الحالة بعينها معقّدة بتاريخ اختصار السيرة نفسها». كما استشهد «بإمكانية وجود نموذج حاخامي لرواية نصّ موثوق أخرجته اللجنة، في إشارة إلى تقليد جامنيا في تدوين الكتاب العبراني»[١]. لم يلتفت وانسبرو في تحليله الأدبي للاختلاف الهائل بين السياقات التاريخية التي وقعت فيها هاتان العمليتان اللتان يفترض أنهما متوازيتان، والحقّ أنّ نتائج تحليله هذا قد استند إليها الباحثون كثيرًا لرفض الدليل التاريخي المقترح والموجود في نصوص كالسيرة.

توصّل وانسبرو باستدلاله هذا إلى أن «العناية بنصّ الكتاب لم تسبق كثيرًا ظهور الأدبيات الماسورتية[٢] [التفسيرية] على نحو ما كانت محفوظة في الحقيقة». وهذا يعني في رأيه أنّ النصّ القرآني اتخذ شكله المدوّن بالتزامن تقريبًا مع ظهور التفاسير[٣]. وأكّد رأيه بما توصل إليه

(١) Wansbrough, 42, 45.

(٢) الماسورتية هي أحد مراحل تدوين العهد القديم، حيث قام الكَتَبة بتشكيل نسخة موحّدة من النصّ التوراتي لأول مرة في القرن السابع؛ حسمًا للخلاف بين النُّسَخ، ولعلّ إسقاط وانسبرو لتاريخ النصّ التوراتي على تاريخ القرآن أمرٌ واضحٌ في اللجوء لمثل هذه المقارنات دون أيّ دليل على انضباطها، (قسم الترجمات).

(٣) Wansbrough, 45.

جوزيف شاخت[1] من أن النصّ القرآني لم يكن الأساس الذي قام عليه الفقه الإسلامي قبل القرن التاسع[2].

تُعَدّ صفة (المعيارية) بالغة الأهمية في حجة وانسبرو؛ إذ يفترض لها مثلًا عاليًا من الدقة. ومن الواضح حتى في التراث الإسلامي الإقرار بحقيقة اختلاف القراءات القرآنية عن الأصل[3]؛ فكان لا بد من اتخاذ خطوات معيَّنة لفرض نصّ

(١) جوزيف شاخت (١٩٠٢- ١٩٦٩) أحد أهم المستشرقين الألمان، درس اللاهوت واللغات الشرقية في جامعة ليبتسك وجامعة برسلاو، حصل على الدكتوراه من جامعة برسلاو (١٩٢٣)، وفي (١٩٢٩) صار أستاذ كرسي بجامعة فرايبورج، وهو معروف لدى المثقفين والدارسين المصريين في فترة الثلاثينيات، حيث انتدب عام (١٩٣٤) للتدريس في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حاليًا) لتدريس فيليلوجي اللغة العربية والسيريانية، شارك في الإشراف على الطبعة الثانية من (دائرة المعارف الإسلامية)، وقد تنقّل من ألمانيا إلى مصر إلى إنجلترا إلى هولندا ثم استقر به المطاف في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل كأستاذ في جامعة كولومبيا منذ (١٩٥٩) وإلى وفاته، اهتمامات شاخت الرئيسة كانت بالفقه والقانون والشريعة الإسلامية، ثم بالحديث النبوي، وله فروض حول الفقه الإسلامي؛ أشهرها كونه قد تأثّر في نشأته بالفقه الروماني، كما له في الحديث فرضية تسمى بنظرية المدار، والمدار مصطلح حديثي يعني الراوي الذي تلتقي عنده الأسانيد، وقد وظّف شاخت هذا المصطلح في نظرية تَعْتَبِر أن الأحاديث وُضعت في القرن الثاني الهجري، وأن مدار الإسناد هو -غالبًا- واضع الحديث، وطالما أثارت نظرياته -وخصوصًا نظرية المدار- انتقادات بعض المستشرقين، هذا رغم إعجاب المعظم بها، قامت هذه الانتقادات على أساس ضعف حضور المدوّنة الحديثية في بلورة شاخت لنظريته، واعتماده الكبير على كتب الفقه: مثل كتاب (الأم) للشافعي، ومؤخرًا صدر لفهد الحمودي كتابٌ بعنوان: (نقد نظرية المدار) وضّح فيه مواطن ضعف هذه النظرية الشهيرة، وأصل الكتاب رسالة دكتوراه تحت إشراف وائل حلاق، وقد ترجم كتاب الحمودي للعربية، بعنوان: (إعادة رسم خارطة النظريات الغربية حول أصول الشريعة الإسلامية)، ترجمة: هيفاء الجبري، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٤.

من أهم آثاره: (الإسلام، توبنغن، ١٩٣١)، و(بداية الفقه الإسلامي، أكسفورد، ١٩٥٠)، وقد نَشر وحقق عددًا من الكتب الفقهية منها: (الحيل في الفقه) لأبي حاتم القزويني، وكتاب (اختلاف الفقهاء) للطبري، (قسم الترجمات).

(٢) Wansbrough, 44.

(٣) هذا الكلام غير دقيق بالطبع، فالتراث الإسلامي يرى أن القراءات كلّها أصيلة، بمعنى أن النبي قد قرأ بها وأقرأ الصحابة بها وأقرّ قراءتهم لها، فضلًا عن كون هذا الكلام يناقض بعضه بعضًا؛ فكيف يقول وانسبرو: إنه لم تكن هناك نسخة موحّدة للقرآن قبل ظهور التفاسير، ثم يقول: إن القراءات كانت تخالف الأصل؟! أين هذا الأصل إذا كان الكتاب لم يدوَّن أصلًا وفقًا لقوله؟! (قسم الترجمات).

موحّد للوحي أو حماية ذلك النصّ في زمن عثمان، ثم في زمن ابن مجاهد، بل وحديثًا في عشرينيات القرن العشرين عندما أعدّ علماء الأزهر النسخة الأكثر استعمالًا حاليًّا. ومع ذلك لا تُعامَل هذه النسخة باعتبارها (معيارية) بشكل فذّ في أجزاء من الهند وشمال أفريقيا؛ حيث توجد نُسَخ تختلف عنها في أسماءً السور والفواصل بين الآيات مع استعمال النقط أحيانًا[١]. ويتّضح من بعض المخطوطات الموجودة أنّ تلك الفروق قد بقيت على مدار التاريخ الإسلامي[٢]. مشكلة وانسبرو فيما يبدو أن تلك الاختلافات ليست جوهرية بل تشتمل على تفاصيل يعتبرها شكليّة، وقد يظنها تافهة[٣]. لكن ثمة أدلة كثيرة تعود إلى القرنين التاسع والعاشر، وهي فترة موثقة توثيقًا جيدًا، بأن تلك الاختلافات لم تكن تعتبر تافهة داخل الإسلام نفسه.

لعلّ من أثمن النتائج التي توصلتْ إليها دراسة وانسبرو في نظر أيّ مؤرخ هي تحليلاتُه لجوانب من النصّ القرآني تبدو مألوفة إلا أنها لم توصف بعناية من قبل أو يُستكشف جميع ما تنطوي عليه، يتمثّل أحد هذه الجوانب في الصبغة الجدلية لكثير من أجزاء القرآن والذي -حسب ما برهن وانسبرو بإقناع- كان يركز على الكتاب والتقليد اليهوديين بما يوحي بوجود معارضة من جانب اليهود كانت من

(١) مسألة فواصل السور وأسمائها -أو أغلب أسمائها- والتقسيم والتحزيب هي بالأساس مسألة اجتهادية، ومعروف أنها لم تكن قائمة في المصاحف الأولى، وأنها جاءت بعد اجتهادات عديدة من العلماء، وبالتالي وجود مثل هذه الاختلافات لا إشكال فيه، خصوصًا إذا كان الحديث عن مناطق بعيدة عن مراكز الخلافة، وبالتالي البعيد عن حضور العلماء الذين اتفقوا لاحقًا على إقرار هذه الإضافات التيسيرية للمصحف، (قسم الترجمات).

(٢) انظر على سبيل المثال: Welch and Pearson, 409-11; A. Jeffery and I. Mendelsohn, «The Orthography of the Samarqand Qur'an Codex,» Journal of the American Oriental Society 62 (1942): 175-95; A. Brockett, «Aspects of the Physical Transmission of the Qur'an in the 19th-Century Sudan: Script, Decoration, Binding and Paper,» Manuscripts of the Middle East 2 (1987): 45, 52, nn. 2-3.

(٣) انظر على سبيل المثال: Wansbrough, 45.

بين العوامل المحفّزة التي أدّت إلى «تدوين» المصحف[1]. وثاني هذه الجوانب يتمثّل في طبيعة النصّ ذاته، باعتباره سلسلة من «النصوص المستقلّة» المضمومة جنبًا إلى جنب إلا أنها مُعبَّر عنها بلغة وأسلوبين موحَّدين.

والتحدي الأساس الذي يواجه مؤرخي الحقبة الإسلامية الأولى يتمثل في الجمع بين هذه الملاحظات النافعة جدًّا وبين الأدلة التاريخية التي لم يدرجها وانسبرو في تحليله. ونظرًا للغموض الشديد في أسلوب الكتابة عند وانسبرو؛ فقد يغري ذلك بإغفال هذا التحدي، لكن نتائج حُجّته شاملة على نحو لا يجيز إغفالها. من المهم الإقرار بأن تحليله استرشد أساسًا بتعميمات مأخوذة من تاريخ النصّ الإنجيلي ثم طُبِّقت على كتاب المسلمين.

وأقوى النتائج التي لا ينصّ وانسبرو عليها صراحة، لكن لا مهرب منها في تحليله هي أن التراث الإسلامي بأكمله فيما يتعلق بتاريخ النصّ القرآني عبارة عن تزييف وَرِع، ولهذا التزييف آثار مباشرة وشاملة جدًّا عند قبوله لدرجة أنه لم يبقَ أثر من الأدلة المستقلة المعاصرة يكشف عنه. وثمة قضية مهمّة متصلة بذلك تتعلق بتأريخ مخطوطات القرآن القديمة، إن كان وانسبرو محقًّا بأنه قد مرّ قرابة قرن ونصف قبل استقرار القرآن في صورته «الرسمية»، فإنه لا يمكن إثبات نسبة أيٍّ من المخطوطات الموجودة إلى الفترة الأموية أو حتى أوائل الفترة العباسية، وخصوصًا تلك المخطوطة الخلافية رقم ٢٠-١ ,٣٣ التي اكتشفت في صنعاء في

(١) كما هو معروف فقد كان القرآن ينزل على النبيّ فيدعو كُتّاب الوحي لتدوينه، وهو ما يتّسق تمامًا مع نظرة القرآن لنفسه والدلالة التي يعطيها للفظة «كتاب» التي يصف بها نفسه مرارًا، ومسألة وجوده في «اللوح المحفوظ» أو «أم الكتاب»، فهذه كلّها تلقي ضوءًا على قضية تدوينه وأنه المصير الطبعي للقرآن، والذي هو بالأساس مكتوب في اللوح المحفوظ ونزل منجَّمًا ليُثبّت به القلوب -كما ينصّ القرآن- ثم مصيره بعد هذا التدوين والجمع مرة أخرى وهو ما ظهر جليًّا في فعل النبي ثم خلفائه؛ لذا نرى من غير الدقيق دراسة تدوين المصحف على أساس علّة خارجية كما يفعل وانسبرو، سواء كانت معارضة اليهود أو غيرها، بل ينبغي النظر في مسألة مثل تدوين المصحف إلى الكيفية التي يعرف بها القرآن نفسه في القرآن، فهي المصدر الرئيس لتبيّن مآل هذا النص، (قسم الترجمات).

السبعينيات من القرن العشرين، والتي اقترح تأريخها بأوائل القرن الثامن[١]، ومن ثَمّ نُسخت بعد ذلك بكثير.

إنّ الغرض من الدراسة الحالية لفت الانتباه إلى بعض الأدلة التي لم يأخذها وانسبرو في الحسبان، ويبدو أنها تناقض النتائج التاريخية التي استقاها من تحليله الذي هو في جوهره غير تاريخي.

النقوش القرآنية:

الوثائق الأساسية لحالة النصّ القرآني في القرن الأول الإسلامي تتمثل في نقشين طويلين في فسيفساء زجاجية باللونين الأزرق والذهبي تحيط بالأوجه الداخلية والخارجية على الترتيب للساباط المثمّن على قبة الصخرة في القدس. ما زالت هذه النقوش محفوظة بأكملها، فيما عدا اسم المأمون العباسي (١٩٨-٢١٨/ ٨١٣-٨٣٣) الذي حلّ محلّ اسم عبد الملك، إلا أنّ المأمون لم يغيّر إعلان التأسيس ٧٢/ ٦٩١-٦٨٢ الذي أدرجه سلفه، والذي مِن ثَمّ يؤكد على أن النقوش نُفِّذت حقًّا في حكم عبد الملك. يشتمل النقش الأساسي على دعوات قصيرة بالإضافة إلى سلسلة من الفقرات مأخوذة من أجزاء عديدة من القرآن، تتعلق جميعًا بموضوع واحد، وهو معارضة العقيدة المسيحية في مدينة الحج النصراني الأساسية[٢].

(١) 14 H. C. von Bothmer, «Architekturbilder im Koran: Eine Prachthandschrift der Umayyadenzeit aus dem Yemen,» Pan- theon 45 (1987): 4-20.

(٢) لاستكشاف الوظيفة الجدلية لهذا البناء المعبر عنها من خلال النقوش علاوة على اختيار الموقع والشكل المعماري، انظر: O. Grabar, «The Umayyad Dome of the Rock in Jerusa- lem,» Ars Orientalis 3 (1959): 33-62; cf. H. Busse, «Monotheismus und isla- mische Christologie in der Bauinschrift des Felsendoms in Jerusalem,» Theol- ogische Quartalschrift 161 (1981): 168-78. وحديثًا قَدّم إن راباط (N. Rabat) في دراسته «The Meaning of the Umayyad Dome of the Rock,» Muqaras 6 (1989): 12-26 =

قرأ ماكس فان برشم[١] النصّ أول ما قرأه على أنه نقش واحد، إِذْ بدأ بالواجهة الخارجية للساباط ووجد تاريخ التأسيس في الوسط متبوعًا فيما يبدو بآيات من القرآن على الوجه الداخلي للساباط ذاته، وقد قَبِل معظم العلماء اللاحقين هذا الترتيب دون جدال[٢]. هذا ويتناقض ترتيب فان برشم مع الترتيب الطبيعي للنقوش التأسيسية الإسلامية التي يوجد بها إعلان التأسيس في النهاية. وفي الحقيقة لا بد أن ندرك أن هذ النصّ الفسيفسائي يشتمل على نقشين مختلفين. وعلى نحو ما دوّن كريستل كيسلر محتواهما، ويتضح أنّ المجموعة الموجودة على الوجه الداخلي من الساباط تشتمل على الرسالة الأساسية. أما النقش الخارجي فيراه أولًا الداخلون إلى المبنى الذين قد يقرؤون الجزء المباشر فقط، إلا أن النصّ الأساسي الذي هو على الوجه الداخلي للساباط صُمِّم ليقرأه العائدون بعد الدخول كاملًا؛ إذ يشتمل ذلك الجانب على تطواف

= بعض التعديلات والتهذيب لتفسير جرابر (Grabar). استشهد إم روزن-أيالون بإشارات في النقوش إلى الملائكة وإلى ميلاد عيسى ووفاته وبعثه خارج السياق دعمًا لتفسيرها بأن البناء تصوير للجنة (The Early Islamic Monuments of al-Haram al-Sharif: An Iconographic Study [Jerusalem, 1989). لكن هذه الإشارات ليست مجرد تفاصيل في رسائل تضاد بوضوح عقيدة الثالوث؛ لذا من غير المرجح أنها تذكّر القارئ بالجنة.

(١) ماكس فان برشم (١٨٦٣- ١٩٢١) مستشرق وعالم نقوش سويسري، كان متعدد الاهتمامات فحضر في عددٍ كبيرٍ من الجامعات، لكنه لم يتخصص في مجال بعينه ولم يُدرِّس في جامعةٍ ما، اهتمامه الأساس انصبَّ على دراسة النقوش العربية، كتب كتابًا بعنوان (Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicam) ومجلده الأول يدور حول النقوش في مصر، والثاني حول النقوش في القدس، والثالث حول النقوش في آسيا الصغرى. كما له عدد من البحوث الأخرى المتفرقة حول النقوش الإسلامية، (قسم الترجمات).

(٢) 16 M. van Berchem, Jerusalem «Haram», Mat6riaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, pt. 2, M6moires de l'Institut fran9ais d'arch6ologie orientale, 154.1-2 (Cairo, 1925-27): 229- 46, no. 215. Cf. Busse, «Die arabischen Inschriften in und am Felsendom in Jerusalem,» Das Heilige Land 109 (1977): 12-14, cf. 22-23; Grabar, The Shape of the Holy: Early Islamic Jeru- salem (Princeton, 1996), 58-61.

في الرواق الأوسط[١]. يبدأ النقش على الجانب الجنوبي للمثمن بجزء من الشهادة بنفس الصيغة الموجودة على العملة التي صكها عبد الملك بعد ذلك بخمس سنوات، تليها سلسلة من الاقتباسات من أجزاء مختلفة من القرآن وفقًا للنص الحالي[٢]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له [بداية الشهادة]. (له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) [جمع بين الآية ١ من سورة التغابن والآية ٢ من سورة الحديد]. محمد عبد الله ورسوله [تكملة الشهادة]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الآية ٥٦ كاملة من سورة الأحزاب]. صلاة الله عليه وسلامه ورحمته [الصلاة ليست في نصّ القرآن]. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا (٣)(٤) لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾

(١) C. Kessler, «'Abd al-Malik's Inscription in the Dome of the Rock: A Reconsideration,» Journal of the Royal Asiatic Society (1970): 2-64. ترتيب النصوص القرآنية مشوش عند E. C. Dodd and S. Khairallah, The Image of the Word: A Study of Quranic Verses in Islamic Architecture (Beirut, 1981), 1:21-24. للترتيب الذي ينبغي أن تقرأ به النقوش، انظر: Blair, «What Is the Date of the Dome of the Rock?» in Bayt al-Maqdis: CAbd al-Malik's Jeru- salem, ed. J. Raby and J. Johns (Oxford, 1992).

(٢) النصّ الأساسي الذي نقدمه هنا هو النصّ الذي أعده كيسلر. نشرت مؤخرًا مجموعة كاملة وواضحة تمامًا للفقرات (على الرغم من الخطأ في تعريفها وترتيبها)، فاستوجب هذا بعض التصويبات والتعديلات في نسختها. بالنسبة لهذه الصور انظر: S. Nuseibeh and O. Grabar, The Dome of the Rock (New York, 1996), 82-105.

(٣) تبدو هذه الترجمة أفضل من «العبد» وفقًا لترجمة بكتال، (المؤلفة).

(٤) ترجمت المؤلفة في نصها الأصلي كلمة «عبد» بكلمة «servant» والتي تعني بالعربية الخادم، (قسم الترجمات).

[الآيات ١٧١- ١٧٢ كاملة من سورة النساء]. اللهم صلِّ على رسولك وعبدك عيسى بن مريم. (سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا) [الآية ٣٣ كاملة من سورة مريم مع تغيير صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب]. ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [الآيات ٣٤ و٣٥ من سورة مريم كاملة]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الآية ٣٦ من سورة مريم كاملة بدون ﴿و﴾ في أولها]. ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [الآيات ١٨ و١٩ من سورة آل عمران]».

كما يبدأ النقش الخارجي على الجانب الجنوبي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له [بداية الشهادة]. ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [سورة الإخلاص كاملة ما عدا البسملة]. محمد رسول الله [تكملة الشهادة]. صلاة الله عليه».

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله [الشهادة كاملة]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الآية ٥٦ كاملة من سورة الأحزاب]».

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده [بداية الشهادة]. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا﴾ [الآية ١١١ من سورة الإسراء كاملة فيما عدا أولها ﴿وَقُلِ﴾]. محمد رسول الله [تكملة الشهادة]. صلاة اللهِ عليه وملائكته وأنبيائه وسلامه عليه ورحمته».

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له [بداية الشهادة]. **(له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)** [جمع بين الآية الأولى من سورة التغابن والآية الثانية من سورة الحديد]. محمد رسول الله [تكملة الشهادة]. صلاة الله عليه. وتقبل شفاعته يوم القيامة عن أمته [صلاة ودعاء]».

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله [تكملة الشهادة]. صلاة الله عليه [صلاة]».

«عبد الله عبد [الله المأمون أمير][1] المؤمنين بنى هذه القبة سنة اثنتين وسبعين. تقبل الله منه ورضي عنه. آمين يا رب العالمين. الحمد لله [إعلان التأسيس]».

تتفق هذه النصوص القرآنية على الرغم من بعض الفروق الطفيفة مع النصّ القرآني المعتمد في نسخة القاهرة، ولعلّ وجود هذه النقوش هي التي جعلت منغنا يفترض أن التدوين الأصلي للقرآن قد حدث في خلافة عبد الملك لا في خلافة عثمان.

الأمر مُحَيِّر في الحقيقة؛ لأنّ نقوش قبة الصخرة معروفة لدى العلماء لما يزيد عن قرن وكانت موضع تفسيرات متكرّرة، ولكن لم تلقَ عناصرها المكونة منها إلا اهتمامًا يسيرًا؛ فعلى الوجه الداخلي للساباط، الشهادة متبوعة بمزيج من الآيات التي تصف قدرة الله، ثم يَرِدُ ذكر النبي، مع الصلاة عليه التي لا تقتبس مباشرة من القرآن، إلا أنها كانت مستعملة بوضوح في عام ٧٢هـ/ ٦٩٤م. ثم يلي ذلك زجر للنصارى بأن عيسى كان نبي الله وبأنه كان إنسانًا، ويلي ذلك القول بأن الله وكيل، وفي الختام أمر بالإيمان بالله وتحذير للذين لا يفعلون ذلك. ويشتمل النقش على الجانب الخارجي -كما ذكر كيسلر[2]- على ستة أقسام تفصل بينها الزخارف، آخرها إعلان التأسيس. ويبدأ كلّ قِسم من الأقسام الخمسة بالبسملة، يتبعها في

(١) ما بين الأقواس تغييرات المأمون.

(٢) Kessler, 11.

كلّ قِسم من الأربعة الأولى الشهادة الأموية وآية من القرآن مرتبة بطريقة تكوِّن جملة مستقلة ومتّسقة، تتبعها الصلاة على النبي، والقِسم الخامس يشتمل على الشهادة كاملة. كلّ قسم من هذه الأقسام إذن عمل فنيّ صغير يلخّص المحاور الكبرى للنقش الموجود على الجانب الداخلي.

يتضح عند مراعاة هذا السياق أن الاختلافات النصّية الصغيرة قد أدخلت لمناسبة المعنى، ويبدو دائمًا أن تكييف النصّ القرآني الرسمي للتعبير عن موضوع من الموضوعات كان أمرًا مقبولًا في النقوش الإسلامية، لكن مع الحرص الشديد على النصّ عند التلاوة الفعلية، بل النقوش ذوات التواريخ الأحدث من ذلك بكثير تجسد تلك التباينات بعد أن كان النصّ (الرسمي) قد ثبت واستقر يقينًا[1]. ويصعب التصديق بأن اختيار الفقرات واتساق ترتيبها في زمن عبد الملك لم يكن ليؤثر على الترتيب (الرسمي) لنصّ القرآن إن كان التدوين قد وقع في عصره أو

(١) Pace Busse, «Inschriften,» 10. أحد الأمثلة منقوش على كتلة حجرية تاريخها ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٠هـ/ ١١ أغسطس ١١٥٥م موضوعة في الجدار الشمالي للمسجد الكبير في مدينة سيزر (جزيرة عمر) على نهر دجلة في جنوب شرق تركيا. انظر: الشكل ٤٠٧ في E. Whelan, «The Public Figure: Political Iconogra- phy in Medieval Mesopotamia» (Ph.D. diss., Institute of Fine Arts, New York University, 1979). السطر الأول من السطور الثمانية المنقوشة عليه غير مقروء. السطر الثاني يشير إلى الموضوع الأساسي للنقش، وهو يوم الدين. الأسطر ٦-٨ تشتمل على دعاء بالبركة لواهب مجهول وتشتمل على التاريخ. الأسطر ٣-٥ تشتمل على الاقتباسات التالية من القرآن جمعت معًا لتوصيل رسالة واحدة متسقة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠ كاملة] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧] ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]. ساعدتني الأستاذة أنا ماري شيمل مشكورة على فكّ شفرات هذا النقش. انظر كذلك: A. Welch, «Qur'an and Tomb: The Religious Epi- graphs of Two Early Sultanate Tombs in Delhi,» in Indian Epig- raphy: Its Bearing on the History of Art, ed. F M. Asher and G. S. Gai (New Delhi, 1985), 257-67. تفضّل الأستاذ بلامي بكتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٣٦٣/ ١٩٨٤)، ج١: ص٣٧٨-٨٠ وهو كتاب من القرن الخامس عشر يدين عمومًا تلاوة القرآن تلفيقًا وبدون ترتيب.

وقع لاحقًا. كما يبدو من غير المحتمل تمامًا أن الجمع بين آيتي التغابن والحديد (مكررة مرتين) كان في الأصل آية واحدة تم (تفكيكها) وإدماجها في أجزاء مختلفة من القرآن.

ومع ذلك، فإنّ أنواع التعديل الطفيفة المذكورة والجمع بين فقرات مختلفة والمزج وتغيّر صيغة المتكلم وحذف بعض العبارات القصيرة أحيانًا جعل باتريشا كرون[١] ومايكل كوك[٢] يشكّكان في قيمة النقوش الموجودة على قبة الصخرة باعتبارها أدلة على (الشكل الأدبي) للنصّ كلّه في ذلك النصّ المبكّر[٣]. ويبدو أن

(١) باتريشيا كرون (١٩٤٥م – ٢٠١٥م)، هي مستشرقة أمريكية من أصل دانمركي، وتعدّ أهم رواد التوجه التنقيحي، وصاحبة أفكار ذائعة الصيت حول تاريخ الإسلام المبكّر وتاريخ الإسلام؛ حيث تشكك في كون القرآن الذي بين أيدينا يعود إلى القرن السابع الميلادي، كما تشكك في كون الإسلام قد نشأ في مكة الحالية، لها عدد من الكتب المهمّة، على رأسها الهاجريزم مع مايكل كوك (١٩٧٧م)، وهو مترجم للعربية، حيث ترجمه نبيل فياض بعنوان (الهاجريون)، وصدر عن المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٥م، وكتاب تجارة مكة (١٩٨٧م)، وهو مترجم للعربية أيضًا، حيث ترجمته: آمال محمد الروبي، وصدر عن المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٥م. وقد أثارت كتبها انتقادات كبيرة من مستشرقين ومؤرخين، منهم نومان دانييل (١٩٤٢م)، ومنهم كذلك هشام جعيط (١٩٣٥م)، الذين اعتبروا إقصاء المصادر العربية تمامًا في كتابة تاريخ الإسلام هو أمرٌ في غاية التعسّف، ومن الكتب العربية التي صدرت في سياق النقاش المنهجي مع هذا التوجه كتاب آمنة الجبلاوي، «الإسلام المبكر والاستشراق الأنجلوساكسوني الجديد، باتريشيا كرون ومايكل كوك نموذجًا»، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، بغداد، ٢٠٠٨. (قسم الترجمات).

(٢) مايكل كوك (١٩٤٠م-) مؤرخ أمريكي، بالأساس درس التاريخ والدراسات الشرقية في كينجز كوليدج، كامبريدج، ثم في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) بجامعة لندن، وهو أستاذ قسم دراسات الشرق الأدنى في جامعة برنستون منذ ٢٠٠٧م، من أهم كتبه بالإضافة لكتابه الشهير مع باتريشيا كرون «الهاجريون»: كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي»، وهو مترجم للعربية، حيث ترجمه: رضوان السيد وخالد السالمي وعمار الجلاصي، وصدر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، في طبعة أولى عام ٢٠٠٩م، وفي طبعة ثانية عام ٢٠١٣م، كما ترجم مؤخرًا كتابه «أديان قديمة وسياسة حديثة، الخلافة الإسلامية من منظور مقارن»، ترجمه: محمد مراس المرزوقي، وصدر عن الشبكة العربية للأبحاث والنشر، عام ٢٠١٧م، (قسم الترجمات).

(٣) P. Crone and M. Cook, Hagarism: The Making of the Islamic World (Cambridge, 1977), 18; 167, n. 18.

سبب الشكّ مرجعه إلى نقشين معاصرين ممهورين على لوحات نحاسية مركبة على الوجهات الخارجية للعتبات العلوية فوق الأبواب الداخلية في المداخل الشرقية والشمالية على الترتيب: «يوجد اتفاق كبير مع النصّ الذي بين أيدينا في [النقوش الفسيفسائية]...؛ كما يوجد أيضًا اختلاف كبير عن النصّ في [الألواح النحاسية]...»[(١)]، والفحص الدقيق للّوْحَيْن النحاسيين يوحي بأن المسألة لا تتعلق بـ(الاختلاف الكبير)، بل إنّ أحد النقشين ليس قرآنيًّا في الأساس، والآخر يجمع بين جذاذات وعبارات أُعيدت صياغتها وتُفْهَم فحسب باعتبارها تعديلًا لنصّ معتمد ومعروف، وتشتمل اللوحات النحاسية على سبعة خطوط وأربعة خطوط من الأصول الأموية على الترتيب. وبالنسبة لبقية النصّ التي تشتمل يقينًا على نقش تأسيسي أصلي باسم عبد الملك، استبدلت بطبقة من النحاس منقوشة باسم المأمون، والبدائل تشبه التي في آخر النقش الفسيفسائي الخارجي[(٢)].

بالنسبة للحالة الأولى، في اللوحة الموجودة على المدخل الشرقي، تشتمل الخطوط الباقية (يشار إليها فيما يلي بفواصل بين الفقرات) من النقش الأصلي على النص التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم [بسملة]، الحمد لله الذي لا إله إلا هو [تحميد]، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[(٣)]، بديع السموات والأرض ونور السموات والأرض وقيّم السموات والأرض الأحد الصمد [سلسة من الصفات] -

(١) Crone and Cook, 167, n. 18.

(٢) لنشر وتحليل هذه اللوحات تحليلا كاملا ونقوشها، انظر: van Berchem, 247-53, nos. 216-17.

(٣) ختام التحميد، وهاتان الصفتان فسّرها فان برشم والعلماء من بعده على أنها اقتباسات من سورة البقرة: ٢٥٥ أو الفقرة المطابقة في آل عمران: ٢. لكن مع أن معظم أسماء الله الحسنى يمكن العثور عليها في القرآن، يبدو من الخطأ محاولة تحديد كلّ استعمال من استعمالاتها على أنه اقتباس. يمكن اعتبار الصفات في هذا النقش، بما في ذلك السلسلة التالية من الثلاث في البناء الذي منقوش عليه (السماوات والأرض)، كالتحميد، أنها وجدت مستقلة ولا حاجة إلى اعتبارها اقتباسات حيث توجد.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الآيتان ٣-٤ من سورة الإخلاص]، ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ [(١)] تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. كلّ ملك لك ومنك ربنا وإليك مصيره، ربّ العزة.

الرحمن الرحيم [كلمات حمد]. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، (وسعت رحمته كلّ شيء) [الأعراف: ١٥٦، مع التغيير من صيغة المتكلم إلى صيغة الغائب]، سبحانه وتعالى [كلمات مدح]، عمّا يشرك المشركون. نسألك اللهم برحمتك وأسمائك الحسنى، وبوجهك الكريم، وسلطانك العظيم، وبكلمتك التامة التي بها تقوم السماوات والأرض.

وبها نُعصم برحمتك من الشيطان. وننجو بها من عذابك يوم القيامة، وبنعمتك السابغة وحلمك وقدرتك وعفوك وكرمك صلِّ على محمد عبدك ونبيك وتقبل شفاعته في أمته -صلى الله عليه وسلم- عليه ورحمة الله و[صلاة]...».

والنقش على البوابة الشمالية يبدأ بطريقة مماثلة للنقش على البوابة الشرقية لكن يدمج مزيدًا من الفقرات من النصّ القرآني:

«بسم الله الرحمن الرحيم [بسملة]، الحمد لله الذي لا إله إلا هو [تحميد]، ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[(٢)]؛ لا شريك له[(٣)]، الأحد الصمد [صفات] - ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤ كما في نقش البوابة الشرقية] - محمد عبد الله [في الجملة الافتتاحية] (ورسوله الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره الكافرون) [الصف: ٩ مع تعديل في

(١) يلي هذا الاقتباس (الأحد)، و(الصمد) الموجودان أيضًا في جمل قصيرة في الإخلاص: ١-٢، لكن لا حاجة إلى اعتبارها «انحرافًا» عن النصّ القرآني. إلا أن من الواضح أن إدراجها في سلسلة من الأسماء الحسنى أريد به ابتداء الفقرة القرآنية.

(٢) حتى هذه النقطة يكرّر النقش هذا بالضبط على البوابة الشرقية.

(٣) قد تكون من الأنعام: ١٦٣، ولا ضرورة مرة أخرى إلى إيجاد الأصل القرآني لمثل هذه العبارة العادية.

البداية للتعريف بمحمد]؛ (آمنَّا بالله وما أُنزل إلى محمد وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [البقرة: ١٣٦ أو آل عمران: ٨٤ مع تغيير في الصيغة وحذف الجزء الأوسط الذي يذكر فيه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى][١] صلَّى الله على محمد عبده ونبيه، وسلامه ورحمته وبركاته ومغفرته ورضوانه... [صلاة]».

والنقوش النحاسيّة لا تمثّل فيما يبدو «انحرافًا» عن النصّ الحالي المعتمد، بل تنتمي إلى تراث يستعمل عبارات القرآن وغيرها من العبارات المألوفة والعبارات المعاد صياغتها والإشارات في الرسائل الإقناعية والخطب سواء أكانت خطبًا حقيقية أو غير حقيقية[٢]. يكفي من بين عدد من النصوص مثالان استشهد بهما الطبري لإثبات هذه النقطة.

في خطبة يفترض أنه ألقاها على أهل خناصرة في شمال سوريا عام (٧١٩-٧٢٠/ ١٠١)، ذكر عمر بن عبد العزيز عبارة: «ولن تتركوا سُدًى»[٣]، وهي إشارة واضحة إلى الآية ٣٦ من سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[٤]. يوجد مثال أطول من ذلك يشتمل على بعض الفقرات المنقوشة على قبة الصخرة، وهو الجزء الأول من خطبة داود بن عيسى أمير مكة سنة (١٩٦/ ٨١١-٨١٢)[٥].

(١) في هذه الفقرات القرآنية، الأقوال أقوال محمد وتأتي بصيغة الجمع للمتكلم. في هذا النقش يخاطب عبد الملك الأمة؛ لذا فإن محمدًا يشار إليه بصيغة المفرد الغائب.

(٢) للوقوف على فكرة مماثلة طُوِّرت في سياق مختلف، انظر: H. Edwards, «Text, Context, Architext: The Qur'an as Archi- tectural Inscription,» in Brocade of the Pen: The Art of Islamic Writing, ed. C. G. Fisher (East Lansing, Mich., 1991), 67-68, 69.

(٣) أبو جعفر محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك. طبعة ليدن، ج٢، ص١٣٦٨؛ طبعة القاهرة، ج٦: ص٥٧٠.

(٤) حددها ديفيد باورز في The Empire in Transition: The Caliphates of Sulayman, Umar, and Yazid, A.D. 715-724/ A.H. 97-105, The History of al-Tabari: An Annotated Translation, vol. 24 (Albany, 1989), 98, n. 347.

(٥) الطبري، طبعة ليدن، ج٣، ص٨٦١-٦٢؛ طبعة القاهرة ج٨، ص٤٣٩.

«الحمد لله مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، بيده الخير وهو عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ [آل عمران: ٢٦ مع تغيير مخاطبة الله إلى صيغة الغائب]، (وَأَشهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريك له، قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) [آل عمران: ١٨ مع تغيير صيغة الغائب إلى صيغة المتكلم وحذف الإشارة إلى الملائكة وأولي العلم بصفتهم شهودًا]، (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالدين، وختم به النبيين) [شهادة أخرى]، (وجعله رحمة للعالمين) [الأنبياء: ١٠٧ مع تغيير صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب][(١)].

استمر التركيز الوثيق على النصّ القرآني والجهود الدائبة لإثبات النسخة المعيارية وحفظها دون اختلاف على مَرّ التاريخ الإسلامي، لكن وُجد مع هذه العناية تقليد يعتمد على ذلك النصّ ويُعدّله لأغراض بلاغية متنوعة. واستعمال الإشارات القرآنية المعروفة على هذا النحو الإبداعي لم يكن حكرًا على الإسلام، بل من غير المتوقع حقًّا ألَّا يتطور هذا التقليد، إلا أن التقليد اعتمد على إقرار مستمعي النصّ أو قرّائه به، وهي إشارة قويّة إلى أن القرآن كان بالفعل ملكية شائعة للأمة في العقد الأخير من القرن السابع. يجب ألا تؤخذ نقوش قبة الصخرة دليلًا على التمسك الدقيق بـ(الشكل الأدبي) للنصّ القرآني أو الانحراف عنه، بل هي خطب قصيرة أو أجزاء من خطبة واحدة ألقيت على قوم يتوقع منهم فهم الإيماءات والإشارات المختصرة لتوصيل رسالة عبد الملك[(٢)]؛ لذا تظهر

(١) حدد إم فيشباين هذه الفقرات في Fishbein, The War between Brothers: The Caliphate of Muhammad al-Amin, A.D. 809-813/A.H. 193-198, The History of al-Tabari: An An- notated Translation, vol. 31 (Albany, 1992), 126, nn.477-79.

(٢) لدليل مواز على تعديل فقرات قرآنية معروفة في الأدب العربي القديم، انظر: W. al-Q.adi, "The Limitations of Qur'nic Usage in Early Arabic Poetry: The Example of a Kharijite Poem," in Festschrift Ewald Wagner zum 65. Ge- burtstag, vol. 2: Studien zur arabischen Dichtung, ed. W. Heinrichs and G. Schoeler (Beirut, 1994), 162-81 (p. 179 =

في بداية تراث طويل من الاستعمال الإبداعي للنصّ القرآني لأغراض جدلية. والفقرات القرآنية القصيرة على العملات التي أصدرت منذ فترة الإصلاح[١] التي قادها عبد الملك عام (٧٧/ ٦٩٧) إلى نهاية الحكم في (١٣٢/ ٧٥٠) تعدّ أمثلة إضافية على هذا الاستعمال؛ فهذه الفقرات تشتمل بالإضافة إلى الشهادة على الآيات ١-٣ (أو ٤) من سورة الإخلاص (فيما عدا البسملة وكلمة ﴿قُلْ﴾) وعلى جزء من الآية ٣٣ من سورة التوبة مع تغيير طفيف لتفهم بنفسها: (أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله...)، وموازاة بالنقوش المعاصرة على قبة الصخرة فإن هذه الاقتباسات يراد منها بوضوح إعلان أفضلية دين الإسلام الجديد على النصرانية تحديدًا.

ولعلّ الأكثر إفادة فيما يتعلق بالشّكل الأدبي للنصّ القرآني ذلك النقش الموجود على حائط القبلة لمسجد النبيّ في المدينة، وهو نقش مفقود منذ زمن بعيد، لكن رآه أبو علي بن رسته[٢] خلال الحج ووصفه عام (٢٩٠/ ٩٠٣)[٣]. يقول إنّ هذا النقش الذي امتد من باب مروان (باب السلام) في الحائط الغربي

= (الشعر العربي القديم ينحو كالنثر العربي إلى إعادة صياغة المواد القرآنية أكثر مما يقتبسها حرفيًّا) idem, «The Impact of the Qur'an on the Arabic Epis- tolography of Abd al-Hamid,» in Approaches to the Qur'an, ed. G. R. Hawting and A. Shareef (London, 1993), 205-313 (p. 307): «لا يستطيع أحد أن يتقن الاقتباس من القرآن على طريقة عبد الحميد دون تمكّن كامل من النصّ القرآني». تفضل الأستاذ فان إس بإعطائي مقالة وداد القاضي.

(١) تمثّل جوهر هذا الإصلاح في سكّ عملة ذات نقوش خالية من التصاوير.

(٢) أحمد بن عمر أبو علي بن رسته، هو فلكي وجغرافي فارسي من أصفهان عاش في القرن الثالث الهجري، وقد حج إلى مكة في حدود عام ٢٩٠ هجريًّا، وقد سار في عمله على خطى ابن خرداذبة فيما يعرف بالمدرسة العراقية، من أعماله كتاب (الأعلاق النفسية) وهو في سبعة مجلدات، لم يصلنا منه سوى المجلد السابع، (قسم الترجمات).

(٣) ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق جي دي خوجه (ليدن، ١٨٩٢؛ أعيدت طباعته في ليدن، ١٩٦٧)، ص٧٠. قارن Sauvaget, La Mosquee omeyyade de Medine (Paris, 1947), 79.

حول الركن الغربي الجنوبي وعبر حائط القبلة ثم من حول الركن الجنوبي الشرقي إلى باب علي وباب جبريل)[1]، يبدأ هذا النقش بأمّ القرآن، أي: سورة الفاتحة كاملة، ويستمر بسورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، حتى ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى نهايتها، وهذا هو النصّ الكامل للسورة (٩١-١١٤)[2]. وقد تأكّد خبر ابن رسته برواية شاهد عيان رأى مسافرًا أندلسيًّا يزور الحرمين بين عامي (٣٠٧/ ٩٢٠ و٣١٧/ ٩٢٩) وقال: إن النقوش اشتملت على (سور قصار) من القرآن[3]. وفقًا لهذا المسافر، كان النقش مكتوبًا في خمسة أسطر بالذهب على خلفية زرقاء في لوحة رخامية. ربما كانت الكتابة على فسيفساء زجاجية باللونين الذهبي والأزرق

(١) لخطة المسجد التي أعيد تركيبها، انظر: Sauvaget, 91.

(٢) قارن ابن النديم، كتاب الفهرست، تحقيق تجدد (طهران ١٨٧١)، ص٦؛ أبو عبد الله محمد بن النجار (٥٧٨-٦٤٣/ ١١٨٣-١٢٤٥)، كتاب الدرة الثمينة في أخبار المدينة، المكتبة الوطنية، باريس، مخطوط Ar. 1630 ص 32a. كتب ابن النجار هذا الكتاب أثناء إقامته في المدينة معتمدًا ربما على مخطوطات في المجاميع المحلية وعلى رؤيته للمسجد (قارن C. E. Farah, "Ibn al-Najjar: A Ne- glected Arabic Historian," JAOS 84 [1964]: 222, 223, 226). تشتمل مصادره على ابن زَبالة (توفي ١٩٩/ ٨١٤) وأبي القاسم المُظفّري والأجزِي. هذان الآخران غير معروفين (Sauvaget, 26).

(٣) اقتبسها بدون نسبة أبو أحمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨/ ٨٦٠-٩٤٠)، كتاب العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الإبياري وعبد السلام هارون (القاهرة، ١٣٦٨/ ١٩٤٩)، ج٦، ص٢٦١. قارن M. Shafi, «A Description of the Two Sanctuaries of Islam by Ibn Abd Rabbihi (t 940),» in A Volume of Oriental Studies Presented to Edward G. Browne on His 60th Birthday, ed. T W. Arnold and R. A. Nicholson (Cambridge, 1922), 420-21. لا دليل على أن أحمد بن عبد ربه فارق الأندلس. قارن cf. W. Werk- meister, Quellenuntersuchungen zum Kitab al-'lqd al-farid des Andalusiers Ibn CAbdrabbih: Ein Beitrag zur arabischen Liter- aturgeschichte (Berlin, 1983), 22-23. واضح من تفاصيل هذه الرواية والإشارات إلى الجامع الكبير في قرطبة أن الإخباري الذي سافر إلى المدينة كان عارفًا بالآثار في الأندلس. وصف الشاهد الحجر الأسود الذي أزاله القرامطة من الكعبة عام ٣١٧/ ٩٢٩ وأعطى أحدث تاريخ ممكن للزيارة (Shafi, 422).

كما هو مكتوب على قبة الصخرة. يتأكد هذا الظنّ برواية أوردها الطبري: «كأني دخلت مسجد رسول الله فرفعت رأسي فنظرت في الكتاب الذي في المسجد بالفسيفساء فإذا فيه: مما أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك»[١].

يوجد نقش آخر مواز لنقش قبة الصخرة، وصفت حروفه بأنها صغيرة وثخينة كعرض الإصبع، يرجع هذا النقش إلى عمارة المسجد التي رعاها الوليد الأول بن عبد الملك (٨٦-٩٦/ ٧٠٥-٧١٥) ونفذها أميره على المدينة عمر بن عبد العزيز بين عامي ٨٨/ ٧٠٦ و٩١/ ٧١٠.

نظرًا لِقِدم هذا التاريخ تشتدّ أهميته لأسباب ثلاثة، أولًا: يشير إلى أنّ ترتيب النصّ القرآني من السورة ٩١ إلى السورة ١١٤ قد ثبت في عام ٩١/ ٧١٠. ثانيًا: جمع السور القصيرة على هذا النحو قد يعني أن ترتيب القرآن بأكمله وفق طول السور كان قد اعتُمد بالفعل. وأخيرًا: سورة الفاتحة والفلق والناس التي رفض عبد الله بن مسعود (٣٢/ ٦٥٣) صاحب المصحف السابق على المصحف العثماني أن يقبلها كجزء من الوحي[٢] كانت قد أدرجت في النصّ القرآني؛ ومن غير المحتمل أن يكون عمر بن عبد العزيز الأموي الوحيد الذي كانت تَقْوَاه موضع تقدير حتى من أعداء أسرته العباسيين -أدرج إلا معلومًا من القرآن بصورة رسمية. والحقّ أن إدراج هذه الفقرات في مسجد النبي كان بمثابة إقرار رسمي.

(١) الطبري، ليدن ج٣، ص٥٣٥، القاهرة ج٨، ص١٧٨ ترجمة 178; tr. H. Kennedy, Al-Mansur and al-Mahdi: A.D. 763-786/A.H. 146-169, The History of al-Tabari: An Annotated Translation, vol. 29 (Albany, 1990): 254. نسبت هذه الرواية إلى سليل أخي علي جعفر في نسب المهدي.

(٢) يبدو أن أقدم مصدر لهذه القصة هو محمد الفضل بن شبة (توفي ٢٦٠/ ٨٧٤)، لكن حجبت في زمانه التفاصيل الحقيقية الخاصة بنسخة المسعودي. انظر: A. Jeffery, Materials for the History of the Text of the Qur'an: The Old Codices (Leiden, 1937), 21.

يصعب تفسير اختيار هذه الفقرة الطويلة لحائط القبلة باعتبارها رسالة واحدة ذات اتساق. ويظهر من دراسة روايات ابن رسته وغيره من الشهود أنه وجد نقشًا للوليد على الواجهة الجنوبية للفناء التي دمرها الخوارج عام (١٣٠/ ٧٤٧) أثناء حكم مروان الثاني (١٢٧-١٣٢/ ٧٤٤-٧٥٠)[١].

لقد كان من الملائم تزيين فناء مسجد النبي والواجهات المحيطة وواجهات الحرم بنصّ كاملٍ من الوحي، ومتابعة المسلمين له نظريًّا بالترتيب عند تقدمهم خلال المبنى، وختمها بالنصّ الموجود على حائط القبلة. يبدو أن هذا الرأي تؤيده مصادر عديدة؛ ذلك أن المؤرخ المصري نور الدين علي بن أحمد السمهودي من القرن الخامس عشر استشهد بالإخباريين محمد بن عمر الواقدي (توفي ٢٠٧/ ٨٢٣)، وابن زَبالة علَى وجود نقوش داخل أبواب المسجد وخارجها[٢]. وقد يجوز تفسير رواية ابن رسته: من أن عمر بن العزيز هو الذي أمر بكتابة النقش الذي في المسجد وهو الذي أمر بكتابة النقش الذي في جدار قبلة مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باعتبارها دليلًا على وجود نقوش حينئذ في أنحاء المبنى.

يوحي التعبير عن المزاعم السياسية في الاقتباسات والإشارات القرآنية بمعرفة واسعة بهذه الآيات ومآلاتها في الأمة الإسلامية المبكرة بين (٧٢/ ٦٩١-٦٩٢ و١٣٢/ ٧٥٠). ومع أن وانسبرو لاحظ في معرض حديثه عن تأخر جمع القرآن

(١) ابن رسته، ص٧٠. لإعادة تركيب النقوش التي رواها ابن رسته، انظر: Sauvaget, 78-80. حول ثورة الخوارج، انظر: C. Pellat, "al-Mukhtar b. CAwf al-Azdi," El2, 7: 524-25. لكن يبدو أن تأريخ ابن رسته لترميم الفسيفساء بعام ١٢٨/ ٧٤٥ غير صحيح. يقول الطبري إن الخوارج دخلوا المدينة عام ١٣٠/ ٧٤٧ وإن عبد الملك بن محمد بن عطية استعاد المدينة مدة قصيرة وعيّن الوليد بن عروة بن محمد بن عطية نائبًا على المدينة (ليدن ج٢، ص٢٠٠٨ و ٢٠١٤ وج٣، ص١١؛ القاهرة ج٧، ص٣٩٤، ٣٩٩ و ٤١٠-١١).

(٢) السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة، ١٣٧٤/ ١٩٥٥)، ج١، ص٣٧١.

أن النصّ لم يُستعمل باعتباره أساسًا للآراء الفقهية قبل القرن التاسع، فثمة أدلة كثيرة من الفترة الأموية على أن النصّ كان معروفًا عند الأمة بما يكفي لتقديم دعاوى تتعلق بالشرعية السياسية والدعاية الدينية يسهل فهمها[١].

نَسخ القرآن:

توجد أدلة أخرى غير مباشرة تتصل بقضية النصّ القرآني؛ فنقش مسجد المدينة السابق الذِّكْر يمثل نقطة البداية. يروي ابن النديم في أواخر القرن العاشر (قبل ٣٩٠/ ٩٩٠) أن خالد بن أبي الهياج صاحب علي كان مسؤولًا عن تنفيذ هذا النقش[٢]. ربما كان خالد أخًا أصغر لهياج بن أبي هياج (هكذا) الذي كان -وفقًا لمصدر آخر- أحد مَن شهدوا وصية علي بن أبي طالب سنة ٣٩/ [٣]٦٦٠.

(١) لتحليل شامل لتفسير سورة قريش ذكرت باتريشا كرون أن «المفسرين لا يعرفون من تفسير هذه السورة أفضل مما نعرف اليوم... ليس لديهم... إلا تخمينات كثيرة استنادًا إلى الآيات نفسها. وكان المعنى الأصلي لهذه الآيات غير معروف لهم، أو ربما كان هناك تحوّل تدريجي عنه. وعلى أيّة حال، فقد التراثُ معناها...» Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987), 210. توحي ملاحظاتها بوجود فترة كبيرة بين تثبيت النصّ القرآني وتطور التفسير في نهاية القرن الثامن؛ لذا تتعارض هذه الملاحظات مع قول وانسبرو بأن تدوين النصّ وابتداء التفسير وقعَا بالتزامن.

(٢) ابن النديم، ص٩. قارن Sauvaget, 79-80 حيث يعرف هذا الرجل بخالد بن أبي السياج بلا مزيد من التوضيح.

(٣) أبو زيد عمر بن شبة النويري، تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة النبوية)، تحقيق شلتوت (بيروت، ١٤١٠/ ١٩٩٠)، ج١، ص٢٢٥-٢٨. كان مصدر ابن شبة بخصوص (وصية علي)، الذي نسخه أبو غسان محمد بن يحيى الذي زعم أن الوصية كانت في حوزته بعد أن أخذها عن أبيه الذي كان كاتبًا وأخذها بدوره عن الحسن بن زيد (توفي ١٦٧/ ٧٨٣) حفيد علي. وفي مصدر آخر استشهد به ابن شبة كان أبو هياج نفسه من شهد الوصية. لا يمكن افتراض صحة الوثيقة، لكن الدليل الداخلي يوحي بأنها لو كانت مزورة فإنّ التزوير يعود إلى الفترة الأموية أو إلى أول عشرين سنة من الفترة العباسية. فعلى سبيل المثال، دعا الموصي نفسه فحسب عبد الله علي أمير المؤمنين. تسمى العباسيون بأسماء الملوك، مع أنه يوجد على الأقل حالة واحدة دعا المنصور فيها نفسه عبد الله عبد الله أمير المؤمنين. انظر: الطبري، ليدن ج٣، ص٢٠٨، والقاهرة ج٧، ص٥٦٦، (شكرًا للدكتور بيتس على هذا المرجع وعلى آرائه في =

نسخ خالد أيضًا نُسخًا من القرآن وغيره من المخطوطات للوليد وعمر بن عبد العزيز[١]. وكان سعد كاتب الوليد أول من استعمل خالدًا هذا، بل ينسب أبو عبد الله محمد بن النجار (توفي ٦٤٣/ ١٢٤٥) نقش المسجد الكبير في المدينة إلى سعد نفسه ويذكر أنه مولى حويطب بن عبد العزى[٢]، الذي كان قرشيًّا وصحابيًّا مات في المدينة سنة ٥٤/ ٦٧٤ في خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠/ ٥٥١-٥٨٠). ورَدَ اسم سعد أيضًا في معجم الأنساب الذي ألَّفه أبو سعيد عبد الكريم بن أبي بكر السمعاني (توفي بعد ٥٦٢/ ١١٦٧) إذ يُعرف فيه بصاحب المصاحف، ومن هذا التعريف اتُخذت نسبة مولاه زياد المصاحفي. الراوية عن ابن أبي حاتم (٢٤٠-٣٢٧/ ٨٥٤-٩٣٨) الذي رواها عن أبيه (توفي ٢٧٧/ ٨٩٠). يُفترض أن زيادًا قد روى أحاديث إلى بكير بن مسمار

= هذه المسألة). اشتكى ابن شبة نفسه من أخطاء في اللغة وقال إنه نسخ أشكال الحروف بالضبط كما رآها، بما يُشعر بأن الوثيقة كانت بالفعل عتيقة في أوائل القرن التاسع. انظر سيرة أبي غسان موجزة في ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب (حيدر أباد، ١٣٢٦، أعيد طبعه في بيروت، ١٩٦٨)، ج٩، ص٥١٧، رقم ٨٤٦. قارن T. Nagel, "Ein friher Bericht iiber den Aufstand von Muhammad b.CAbdallah im Jahre 145 H.," Der Islam 46 (1970): 236-38.

(١) ابن النديم، ص٩. لدى نابيا أبوت بعض التحفظات على خالد في بحثها (Abbott (The Rise of the North Arabic Script and Its Kur'anic Development, with a Full Description of the Kurman Manuscripts in the Oriental Institute [Chicago, 1939], 54, n. 8)، إذ تقول: «لا بد وأنه كان صاحبًا حديث السن لعلي وكاتبًا كبيرًا للوليد»، وتنبّه على إسقاط اسمه من أسماء كتبة الوليد التي جمعها بجوركمان في (Beitrage zur Geschichte der Staatskanzlei im -is lamischen Agypten [Hamburg, 1928], 57). وضع بجوركمان فقط قائمة بأسماء كتبة الدولة في عهد الوليد في دمشق، إلا أن خالدًا كان يعمل في المدينة. ولا بد من ملاحظة أن (صاحب) لا تعني صاحبًا فحسب بل تلميذًا وتابعًا، وبأن السياق سياق مناقشة ابن النديم للكُتب التي جمعها الكتبي الشيعي في زمانه، بما يُشعر أنه عرّف خالدًا بأنه شيعي. يبدو من رواية ابن شهاب عن وصية علي أن أسرة خالد كانت قريبة من علي.

(٢) ابن النجار، ورقة 32a.

الزهري (توفي ١٥٣/ ٧٧٠) في المدينة، وهذا يتّسق مع وضع سعد في الترتيب التاريخي[١].

مع أن هذه الروايات لا يمكن عزوها إلى تاريخ أقدم من منتصف القرن التاسع، إلا أنه يبقى من الممكن تتبع المسألة إلى أبعد من ذلك. ونبدأ فنقول إنّ حويطب كان من عشيرة عامر بن لؤي، وأسلم بعد معركة حنين، قيل: إنه كان أحد ستة عشر قرشيًّا عرفوا الكتابة في زمن النبي[٢]، وكان صهرًا لأحد كبار المسلمين الأوائل ويمكن تتبع صِلاته العائلية في فروع كثيرة على مَرِّ الأجيال[٣].

---

(١) ٦٦ السمعاني، كتاب الأنساب، نسخة مصورة تحقيق مرجليوث (لندن، ١٩١٢)، ورقة ٥٣١ب عند (المصحفي). انظر: بكير في ابن حجر، ج١، ص٤٩٥ رقم ٩١٤، ولسان الميزان (حيدر أباد، ١٣٣٠/ ١٩١٢)، ج٢، ص٦٢، رقم ٢٣٦. فَسّرَ «واي إيش» (Y. Eche, Les Biblio- theques arabes publiques et semi-publiques en Mesopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age (Damascus, 1967), 18) مصطلح (صاحب المصاحف) بأنه: (كُتبي) وعرف سعدًا بأنه كتبي الوليد في دمشق. لكن يتضح من سياق جميع هذه الروايات أن سعدًا عاش في المدينة وأنه لم يكن كُتبيًّا بل نساخًا للمصاحف. انظر: السمهودي، ورقة 120a عند (الجامع) حيث يقول (ما يفيد) أن النسبة تتعلق بالمجموع أي المصحف وأن أشهر [شخص] عرف بهذه النسبة هو أبو حبيب محمد بن أحمد بن موسى الجامعي المصاحفي الذي كان ينسخ الجامع.

(٢) ابن شبة، نقله ابن عبد ربه (القاهرة، ١٣٦٣/ ١٩٤٤)، ج٤، ص١٧-٥٨. وقد يكون المصدر كتاب مكة المفقود.

(٣) كان أحد أخوين شقيقين، ثانيهما أبو رُهم الذي كان زوجًا لبرة بنت عبد المطلب عمة النبي، كما كان زوجًا لميمونة بنت الحارث التي تزوجت النبي بعد وفاة أبي رهم. كانت أخت حويطب زوجة لسفيان (أو الأسود) بن عبد الأسد. ثمة أيضًا أخوان غير شقيقين، هما مخرمة وأبو سبرة. سعد أو سعيد من سلالة مخرمة في الجيل السادس كان كبير القضاة في المدينة في عهد المهدي، وكان ابنه عبد الجبار من بعد أميرًا ثم قاضيًا في المدينة في زمن المأمون. كان أبو سبرة حاكمًا على البصرة في عام (١٧/ ٦٣٨-٦٣٩) وقائدًا للجيش الذي غزا خوزستان في ذلك العام. وكان ابنه محمد كبير القضاة في المدينة كما كان حفيد محمد، أي: محمد بن عبد الله. كان أخو الثاني غير الشقيق أبو بكر بن عبد الله قد أيد ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) سنة ١٤٥/ ٧٦٢. سجنه في المدينة عيسى بن موسى ثم أطلق بأمر المنصور. =

وعلى الرغم من بعض المبالغات في سيرته[1]، فإنه كان شخصية تاريخية. تشير كثير من الحكايات إلى أن حويطبًا كان معروفًا بالجشع، أهمها بالنسبة للسياق الحالي تلك القصة التي تقول إنه في وقتٍ ما باع بيته في مكة لمعاوية بمبلغ كبير قوامه أربعين ألف درهم، ثم انتقل إلى المدينة واستقر هناك (بالبلاط عند أصحاب المصاحف) وهي جماعة ارتبط بها مولاه سعيد[2].

= كان حويطب متزوجًا من آمنة (أو أمينة أو أميمة) بنت أبي سفيان بن حرب زوجة القائد الأعلى للقوات المكية ضدّ النبي. كانت آمنة إذن أختًا غير شقيقة للخليفتين معاوية ويزيد بن أبي سفيان (٦٠-٦٤/ ٦٨٠-٦٨٣). ولدت لحويطب ابنه أبا سفيان ثم طُلقت. كان أبو بكر بن عبد الرحمن -حفيد أبي سفيان- كبيرَ القضاة في المدينة في زمن الخليفة هشام (١٠٥-١٢٥/ ٧٢٤-٧٤٣). قُتل محمد بن عبد الرحمن حفيد أبي بكر في نهر أبي فُطرس في فلسطين عام (١٣٢/ ٧٤٨-٧٤٩). وأخيرًا، روى محمد بن عبد الكريم حفيد محمد هذا الحديث في حران في شمال سوريا.

مصعب بن عبد الله الزبيري، «نسب قريش والعصبة»، تحقيق ليفي بروفينسال (القاهرة، ١٩٥٣)، ص٤٢٦-٣٠؛ الطبري، ليدن ج١، ص١١٨٤، ١٧٧٣، ٢٤٩٨، ٢٥٤٩-٥٠، ٢٥٥٢-٥٣، ٢٥٥٦-٥٧، ٢٥٦٤-٦٧، ج٣، ص٢٣٢٦-٢٩، ٢٤٥٣-٥٣؛ القاهرة ج٢: ٣٣١؛ ج٣، ص١٦٦؛ ج٤، ص٥٠، ٨١-٨٤، ٨٦، ٩١-٩٤؛ ج١١، ٥١٧-١٩، ٦١١؛ أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف (تحقيق: محمد حميد الله، بيروت، ١٤٠٠/ ١٩٧٩)، ج١، ص٢٢٠، ٢٢٨، ٢٩٢، ٣١٢، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٦٢، ٣٦٣، ٤٠٤، ٤٤١، ٤٤٤-٤٦؛ (تحقيق: إحسان عباس، فيسبادن، ١٩٧٩)، ٦:١.٤ وحاشية ٢؛ عبد الرحمن بن صفوان بن سعد، الطبقات الكبرى (تحقيق سخاو، ليدن، ١٩٠٤)، ج٣، ص٢٩٣-٩٤؛ ج٨، ص١٧٤، ١٩٢-٩٣؛ أبو محمد على بن حزم، جمهرة أنساب العرب (بيروت، ١٤٠٣/ ١٩٨٣)، ج١، ص١٦٩. لغير ذلك من ذرية حويطب، انظر الزبيري، ص٤٣٠؛ ابن سعد، ج٥، ص١٢٨-٢٩، ٣٣٥-٣٦. دكتور إيلا لانداو-تاسيرون زوّدني مشكورًا بالمراجع الخاصة بحويطب.

(١) على سبيل المثال، كان أحد من قالوا إنهم عاشوا ستين سنة في الجاهلة ومثلها في الإسلام. الطبري، ليدن، ج٣، ص٢٣٢٦-٢٣٢٩؛ القاهرة ج١١، ص٥١٧-٥١٩. قارون بن سعد ج٥، ص٣٣٥.

(٢) الطبري، ليدن، ج٣، ٢٣٢٩؛ القاهرة ج١١، ٥١٨-٥١٩. هذه القصة التي رواها اليعقوبي أيضًا (توفي ٢٩٢/ ٩٠٢) يمكن نسبتها إلى الواقدي. قارن W. G. Millward, "The Adaptation of Men to Their Time: An Historical Essay by al-Yacqfibi," JAOS 84 (1964): 330, 3 حيث يذكر -وفقًا للترجمة- أن حويطبًا باع البيت ولم يشتره.

قارن ابن حزم، ج١، ص١٦٨-٦٩. يبدو أن هذا التفصيل الخاص بأصحاب المصاحف لم يحفظه اليعقوبي، إلا أن السمهودي ج٢، ص٧٤٦ نقله من طبقات ابن سعد. كان فيما يبدو هناك أربع نسخ من =

يبدو من هذه الرواية أن القرن السابع ربما شهد وجود منطقة معيّنة في المدينة تُنسَخ فيها مخطوطات القرآن وتُباع. وقد حُفظ جزء كبير من تاريخ المدينة المبكّر من تأليف أبي زيد عمر بن شبة النميري (١٧٣-٢٦٢/ ٧٨٩-٨٧٥) الذي هو من أسرة مدنية معروفة[١]. ومع أن وصفه لطوبوغرافيا المدينة ليس واضحًا تمام الوضوح دائمًا؛ فإنه مهم جدًّا لما يحتوي عليه من تفاصيل. ومن ذلك ما سجّله بالتفصيل عن المنطقة المحيطة بالبلاط الأعظم أي الشارع الممهد الذي يمتد غربًا من مسجد النبي إلى المصلَّى. فمن المساكن التي كانت قبالة الجانب الشمالي من البلاط الأعظم كان هناك مسكن بالقرب من نهايته الغربية ملكًا لحويطب[٢].

= نصّ ابن سعد، آخرها رواه حياويه (توفي ٣٨٢/ ٩٩١) استعمله «سخاو» في طبعته، والذي رواه الحارث بن أبي أسامة (توفي ٢٨٢/ ٨٩٥) استعمله الطبري (J. W. (Fick, «Ibn Sa'd,» El2, 3:922. نظرًا لأنه لا توجد إشارة إلى أصحاب المصاحف في طبعة «سخاو»، فلا بد أن السمهودي كان يقتبسه من غير ذلك من النسخ.

(١) ابن شبة، ٤ مجلدات (بيروت، ١٤١٠/ ١٩٩٠). يبدو أنه أُلِّف في البصرة، لكن يوجد بعض الشك في أن المؤلف كان على معرفة وثيقة بالمدينة. نسخ السمهودي أجزاء كبيرة من النص، إلا أن الأصل قد نشر مؤخرًا، فيما يبدو عن نسخة كانت في يد المؤلِّف ابن حجر العسقلاني من القرن الرابع عشر (ابن شبة، ١: نون ألف). توحي بعض التفاصيل -بما في ذلك الاختلافات والأخطاء في التهجئة- أن السمهودي عمل على أساس المخطوطة ذاتها.

(٢) حدد مكانها بين دار الربيع مولى أمير المؤمنين (المنصور ١٣٦-٥٨/ ٧٥٩-٧٥) في الغرب (وهذه مفارقة ليست نادرة في نص ابن شبة) ودار عامر بن الوقاص في الغرب. فصلت عن سابقتها بممر يؤدي إلى منزل آمنة بنت أبي سرح. يوحي السياق بأن بيت آمنة ربما كان على الشمال من دار حويطب. وعبر البلاط إلى الجنوب كانت محلة بني زرق وهي قبيلة أصلها من اليمن.

كانت دار حويطب فيما يبدو قبالة دار حفصة، وقد آلت ملكيتها في حياته إلى عثمان بن أبي العاص ثم معاوية مولى حفصة، ودار أبي هريرة (ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، تحقيق وستنفيلد Jacut's Geographisches Worterbuch [1866], 1: 245-46, 251- 52؛ ابن شبة ، ج١، ص٢٤٠-٤١، ٢٥٢، ٢٥٥،-٥٦). امتلك حويطب بيتين آخرين في المدينة، كان أحدهما في محلة بني زريق بعيدًا عن البلاط والآخر عرف بدار صبح كان بين منزل المطلب والميدان الذي بإزاء مجلس الحكم (ابن شبة، ج١، ص٢٥٢-٥٣). المكان الدقيق لهذا المنزل الثالث لم يحدد بعد، لكن يبدو أنه لم يكن بالبلاط.

لم يذكر ابن شبة صراحة أصحاب المصاحف الذين يُروى أن حويطبًا كان قد استقر بالقرب منهم، على الرغم من إطلاقه كلمة (أصحاب) على كثير من جماعات الحِرف. ومما يلفت النظر (أصحاب الرَّباع) الذين كانوا في النهاية الشرقية للبلاط الأعظم قرب الركن الشمال الغربي من المسجد الكبير[١]. من غير الواضح أيّ حرفة كانوا يمارسون، بل كانوا محلّ إشكال في القرن الخامس عشر عندما ظن السمهودي -معتمدًا على نصّ ابن شبة- أنهم ربما كانوا يعدّون نُسخ القرآن ويبيعونها؛ إذ كانت تعرف أحيانًا بالرَّباع[٢]. وإن كان محقًّا فمن الواضح أن أصحاب الرباع الذين ذكرهم ابن شبة لم يكونوا أصحاب المصاحف الذين ذكرهم الطبري؛ لأنهم لم يكونوا مجاورين لبيت حويطب بالبلاط.

ثمة أدلة متكاثرة على أن المدينة كانت المركز الفكري الإسلامي في الفترة الأموية قبل اشتهار مدن العراق. قدم إم إس بيلغيج ورفائيل تالمون أدلة على وجود (مدرسة) متميزة للنحاة في المدينة في النصف الأول من القرن الثامن، بما يستشرف ظهور مدارس أشهر منها في البصرة والكوفة[٣]. يزعم تالمون كذلك أن عددًا من رجال هذه الفئة اعتاشوا من نسخ القرآن، إلا أنه سجّل مثالًا واحدًا فحسب وهو أبو حازم (أو أبو داود) عبد الرحمن بن هرمز بن كيسان الأعرج الذي كان من تابعي المدينة ومات في الإسكندرية سنة ١١٧/ ٧٣٥ أو ١١٩/ ٧٣٧[٤]. وكان مولى لبنى هاشم ينسخ المصاحف.

---

(١) ابن شبة، ج١، ص٢٣١.

(٢) السمهودي، ج ٢، ص ٢٤٥- ٢٤٦ .

(٣) M. S. Belguedj, «La d6marche des premiers grammaires arabes dans le domaine de la syntaxe,» Arabica 20 (1973): 168- 85; R. Talmon, «An Eighth-Century Grammatical School in Medina: The Collection and Evaluation of the Available Material,» Bulletin of the School of Oriental and African Studies 48 (1985): 225, 228.

(٤) محمد بن حبان البستي [النصف الأول من القرن التاسع]، كتاب مشاهير علماء الأمصار، تحقيق فلايشهامر (فيسبادن، ١٩٥٩)، ص٧٧، حاشية ٥٥٩؛ السمعاني، ورقة ٤٤ب، عند (الأعرج). كان مصدر ابن حبان مرة أخرى المترجِم أبو حاتم من القرن التاسع. يستشهد تالمون خطأ بـ Belguedj, 172-73 كمصدر للنتيجة الكبرى التي توصل إليها من أن كثيرًا من النحاة اعتنوا بالمخطوطات القرآنية.

قيل: إنّ ثلاثة أشخاص على الأقل في المدينة كانوا ينسخون المصاحف في الربع الأخير من القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني؛ لذلك يبدو أن من غير المستحيل أن تلك الفئة العاملة كانت ترتكز بالفعل في المدينة[١]، وفي تلك الأيام الأولى لا بد وأنه كان هناك طلب كافٍ على المصاحف المدونة حديثًا؛ ليستعملها العامة في المساجد والمدارس وليستعملها الخواص من الأثرياء أو الرعاة الأتقياء لضمان توفير العمل لهذه الفئة.

والتفاصيل التي نستشهد بها هنا مبعثرة في نصوص مختلفة الصبغة والزمن والمراجع ثانوية جدًّا مقارنة بالروايات الأساسية، والأشخاص ليسوا نابهين جدًّا ليكونوا جزءًا من التزوير الواعي وإنْ تدثر بالتقوى للتاريخ الإسلامي المبكر في نهاية القرن الثامن. وكلّ هذا يشير إلى النشاط الواسع في إنتاج نسخ القرآن من أواخر القرن السابع بما يتفق مع أدلة النقوش ويؤكدها بخصوص النصّ الثابت نفسه.

والحقّ أنه منذ زمن معاوية إلى حكم الوليد نشط الخلفاء الأمويون في تدوين كلّ وجه من الأعمال الدينية عند المسلمين؛ فمعاوية حوّل منبر النبي إلى رمز للسلطة وأمر ببناء المقصورات في الجوامع الكبرى، وعبد الملك استشهد بآيات القرآن على العملة والآثار العامة إيذانًا بالنظام الإسلامي الجديد، وأعطى الوليد دور العبادة والعبادات التي تقام فيها أشكالًا فنية[٢]. ويبدو من غير المعقول أن

(١) وفقًا لروايتين عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم (توفي ١٣٦/ ٧٥٣) نسخ عمرو بن رافع وأبو يونس مصحف أزواج النبي: حفصة بنت عمر بن الخطاب (توفيت ٤٥/ ٦٦٥)، وعائشة بنت أبي بكر الصديق (توفيت ٥٨/ ٦٧٨) على الترتيب؛ موطأ الإمام مالك (القاهرة، ١٣٨٦/ ١٩٦٧)، ج٢، ص٣٤٤، حاشيتان ٩٩٩-١٠٠٠. روى ابن سعد أن عَمْرًا كان ابن مولى لعمر بن الخطاب أن حفصة نفسها كانت مصدر قصة المصحف (ج٥، ص٢٢٠)؛ كان أبو يونس مولى عائشة، لكن ابن سعد لا يذكر أنه نسخ لها المصحف (ج٥، ص٢١٨).

(٢) 63 E. Whelan, «The Origins of the Mihrab Mujawwaf: A Reinterpretation,» International Journal of Middle East Studies 18.2 (1986): 205-24.

تكون تلك الجهود قد سبقت العناية بتدوين المصحف نفسه. وأنواع الأدلة المختلفة المستشهد بها هنا تؤدي إلى نتيجة معيّنة، وهي أن التراث الإسلامي تراث موثوق (في صورته العامة على الأقلّ) في نسبة التدوين الأول للمصحف إلى عثمان ولجْنَتِه التي عيَّنها. وكان القرآن متاحًا لدى من جاء بعده كوسيلة لجمع شتات الناس في الإمبراطورية المترامية في أمة واحدة.

ويمكن القول بأن النقوش على قبة الصخرة ارتبطت بهذه الخلفية؛ نظرًا لتباينها الشديد في أسلوب كتابتها عن النماذج الأقدم من الكتابة العربية بأي وسيلة[١]. وقد دعا الوليد أحد كتَبة القرآن ليصمم نقوش المسجد الكبير في المدينة، ويبدو أن عبد الملك قد لجأ إلى مصدر مماثل قبل ذلك بخمسة عشر أو عشرين عامًا. والجمع الوحيد من أولئك الكتبة المهرة الذين تركوا أثرًا وإن كان ضعيفًا في المصادر التاريخية هو أصحاب المصاحف في المدينة؛ ولأن هؤلاء الرجال كانوا يحترفون نسخ القرآن فلا بد أنهم قد طوروا أسلوبًا للكتابة له قواعده وأحكامه كالامتدادات الطولية والحروف الدائرية الفارغة واستعمال الضبط بالشكل وتزيين فواصل الكلام[٢]. وإلاَّ فأنَّى لعبد الملك أن يجد فنانًا قادرًا على وضع نقوشه الجميلة على قبة الصخرة[٣]؟!

---

(١) انظر Abbott, pls. II-V.

(٢) انظر نسخًا أكثر إيضاحًا لهذه الأعراف في Whelan, «Writing the Word of God: Some Early Qur'an ists and Their Milieux,» part I, Ars Orientalis.

(٣) قارن R. Blachere, Introduction au Coran, 2nd ed. 1959), 88. اقترح رَاباط مؤخرًا (Recently Rabbat, «The Dome of the Rock Revisited: Some Remarks on al-Wasiti's Account,» Muqarnas 10 70-71) أن مصمم النقوش ربما كان أحد رجلين كُلِّفا بالإشراف على عمل قبة الصخرة، حسب رواية من القرن الحادي عشر أوردها أحمد الواسطي في (فضائل البيت المقدس) (القدس، ١٩٧٩)، ص٨٠-٨١. كان رجاء بن حيوة، وهو رجل مشهور في خدمة عدة خلفاء أمويين، في بداية حياته العملية في حكم عبد الملك. على الرغم من أن رجاء ربما عمل وزيرًا عند الخليفتين سليمان (٩٦-٩٩/ ٧١٥-١٧) وعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١/ ٧١٧-٢٠)؛ وفقا لـ C. E. Bosworth, «Raja' ibn Haywa al-Kindi and the Umayyad Caliphs,» =

ملحق: تطور تراث المصاحف:

امتدت دولة الإسلام فانتشر نَسْخُ القرآن من المدينة إلى غيرها من المدن؛ ففي أواخر الفترة الأموية قيل إن مالك بن دينار (توفي ربما قبل سنة ١٣١/ ٧٤٨) مولى بني نجية بن سامح بن لؤي كان يعد نُسخًا من القرآن في البصرة[١]. وكان الأصبغ بن زيد الوراق الجهني (توفي ١٥٩/ ٧٧٦) مولى جهينة يبيع الكتب وينسخ القرآن في واسط[٢]. وميّز ابن النديم نُساخ المصاحف من الذين نسخوا القرآن بخطوط معينة كالمحقق والمشق[٣]. فمن الفئة الأولى خُشنام البصري والمهدي الكوفي اللذَيْن نسَخَا المصحف في حكم الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-٩٣/ ٧٨٦-٨٠٩). روي أن خشنام كان يكتب حرف الألف بطول ذراع. في هذه الرواية مبالغة ظاهرة[٤]، إلا أنها تشير إلى أن الكاتب كان يتفنن. وفي بداية حكم المهدي كان جميع نُسّاخ المصاحف الذين ذكرهم ابن النديم من الكوفة، وفي هذا إشارة إلى أنهم كتبوا بأسلوب مختلف عن الكتابة الجارية، كان هؤلاء أبو جاري (أو أبو هادي أو جُدي) الذي كان يعمل في زمن المعتصم (٢١٨-٢٢٧/ ٨٣٣-٨٤٢) وابن أم شيبان والمشهور وأبو خميرة وابن خميرة (أو حُميرة أو ابن حُميرة) وأبو الفرج آخرهم.

= Islamic Quarterly 16 [1972]: 43 and n.5، تختلف المصادر)، لا يوجد دليل على أنه عمل في النسخ قط والتزم بمجوعة معينة من الصياغات الأسلوبية من النوع الموجود على قبة الصخرة أو أن فئة من النساخ ازدهروا في فلسطين في زمن عبد الملك.

(١) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (القاهرة، ١٣٥١/ ١٩٣٢)، ج١، ص٣٥٧-٨٩؛ ابن سعد، ج٧، ص٢، س١١.

(٢) السمعاني، ورقة 579r، عند (الوراق). قارن ابن سعد، ج٧، ص٢، س٦١.

(٣) ابن النديم، ٩-١١.

(٤) ابن النديم، ٩-١١؛ انظر أنواع القياسات المكعبة المستعملة في أول الإسلام التي لا يتسع السياق الحالي لذكرها في W. Hinz, Islamische Masse und Gewichte umgerechnet ins metrische System (Leiden, 1970), 55-62. The smallest was 49.875 cm.

وأحد أشهر هؤلاء كان ابن أم شيبان، قاضي بغداد المالكي أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي الذي توفي في ٣٦٩/ ٩٧٩. وكان سليلًا لعيسى بن موسى الذي سماه الخليفة العباسي الأول السفاح (١٣٢-٣٦/ ٧٤٩-٥٤) وريثًا للمنصور (١٣٦-١٥٨/ ٧٥٤-٧٧٥)، لكن أجبره الثاني على التنحي عن العرش وطرده إلى الكوفة. كانت أسرة أبي الحسن من سلالة عبد المطلب صاحب النبي.

لا تذكر روايات أخرى أن ابن أم شيبان نسخ القرآن، (مع أنه قيل: إنه قرأ القرآن في نسخة أبي بكر بن مجاهد الذي أدخل على النصّ تحسينات كبيرة)، ووضعه الاجتماعي يميزه عن النساخ الأوائل المعروفين الذين عرف معظمهم بأنهم موالي[١]. فإن كان هو الرجل الذي أراده ابن النديم لا شخصًا آخر من نفس العائلة، فجائز أنه قام بهذا العمل في باكر حياته العملية. مات أبو الفرج عبيد الله بن عمر المصاحفي في (٤٠١/ ١٠١١) بعد حوالي عشرين عامًا من ابن النديم نفسه، وربما كان يعمل في الوقت الذي كان يؤلف ابن النديم فيه كتابه[٢].

من غير الممكن الآن تحديد نسّاخ المصاحف الآخرين، لكن يجب ملاحظة أن أسماءهم غامضة. كما لا يمكن ربط أيٍّ من النساخ المذكورين أو معاصريهم بما تبقّى من الجذاذات المخطوطة.

ولا يوجد حاليًا دليل مقنع على بقاء قرآن يعود إلى القرن التاسع، والذي يمكن قوله بالتأكيد هو أن أقدم المخطوطات الموجودة، مع الجهل بأسماء ناسخيها تمامًا، تمثّل جزءًا من تقليد متطور تمتد جذوره إلى القرن السابع في المدينة.

❁ ❁ ❁

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت، بدون تاريخ)، ج٥، ص٣٦٣-٦٤، حاشية ٢٨٨٩. قارن ٣٦٣ رقم ٢٨٨٨؛ ابن حزم ج١، ص٣٢؛ أبو عمر محمد الكندي، كتاب الولاة والقضاة، تحقيق آر جيست The Governors and Judges of Egypt... (Leiden and London, 1912), 573.

(٢) الخطيب، ج١٠، ص٣٨٠، حاشية ٥٥٤٨.